# الفصل الخامس عشر

## المثنى فى العراق

ودع المثنّى خالد بن الوليد حين سفره من العراق إلى الشام حتى تخوم البادية . فلما رجع إلى الحيرة بدأ ينظم الدفاع عن البلاد التى فتحها المسلمون بما بقى له من قوات بعد الذين ارتحلوا مع خالد . ولم يكن المثنّى فى ريب من أن الفرس سيتحرشون به متى علموا بسفر خالد ، وأنهم سيحاولون طرده وطرد المسلمين من الحيرة ومن أرض العراق جميعًا .

المثنى ودقة موقفه

والحق أنه كان فى موقف بالغ غاية الدقة ؛ فقد بطش خالد بالبدو المقيمين بجزيرة العراق بطشًا جعلهم جميعًا خصومًا للمسلمين ، يتربصون بهم الدوائر ويحرصون على مناصرة أعدائهم . وقد تنبه الفرس إلى أن دولتهم مؤذنة بالزوال إذا ظل لهؤلاء العرب الغُزاة فى العراق سلطان . وشعور خالد بن الوليد بدقة الموقف هو الذى دفعه فبعث بالنساء والصبيان والضعفاء من الرجال إلى المدينة قبل سفره إلى الشام . طبيعى أن يفكر المثنّى فى هذا كله وأن يطول تفكيره فيه . فهو الذى دفع أبا بكر إلى غزو العراق ، وهو الذى تقدم خالداً والمسلمين جميعًا إلى مفاتيحه بالسير إلى دلتا النهرين . فليس من الهين على نفسه أن يهزم فى بلد كان الطليعة فى غزوه . وأشد من ذلك عليه أن تبلغ به الهزيمة حتى يجلو عن هذا البلد بعد فتحه .

وزاد الموقف دقة أن هدأ الاضطراب الذى ساد بلاط فارس سنوات متتالية . فقد اتفق أهل فارس فملكوا عليهم شهريران[1] ابن أردشير بن سابور . فلما اطمأن له الأمر كان إجلاء المسلمين عن العراق أول ما استقر عليه عزمه . وما له ينتظر والفرصة سانحة وخالد بن الوليد غائب بالنصف من جيش هؤلاء الغزاة ! . لذلك وجه هُرمز جاذويه فى عشرة آلاف لمحاربة المثنى . وجعل هرمز فى مقدمة جيشه فيلا من فيلة الحرب يخوّف به المسلمين ويشتت صفوفهم .

---

(١) وقيل شهر بازان ، أو شهر بازار ، أو شهر براز .

الكتب المتبادلة بين شهريران والمثنى

وبلغت المثنى أنباء هذه التجهيز ، ثم بلغته أنباء تحرك هرمز وجيشه . أتراه ينتظر حتى يجيء إليه بالحيرة متخطياً حدود البلاد التى فتحها المسلمون ؟! كلا ! بل خرج هو كذلك بجنوده وجعل أخويه المعنّى ومسعوداً على ميمنته وميسرته وسار حتى بلغ أطلال بابل . وإنه لفى مسيرته إذ جاءته رسالة من شهريران يقول فيها : « إنى قد بعثت إليك جنداً من أهل فارس . وإنما هم رعاة الدجاج والخنازير ، ولست أقاتلك إلا بهم » . وتناول المثنّى الرسالة وتلاها ، فلم يلبث أن رد عليها مع الرسول الذى جاء بها برسالة يقول فيها : « من المثنّى إلى شهر يران ، إنما أنت أحد رجلين ، إما باغ فذلك شر لك وخير لنا ، وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وفى الناس الملوك . وأما الذى يدلنا عليه الرأى فإنكم إنما اضطررتم إليهم . فالحمد لله الذى رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير » .

بُهت أهل فارس حينما عرفوا رسالة المثنى وعرفوا مسيرته . فلم يكن أحد منهم يتوقع أن تكون فى المسلمين هذه القوة بعد انصراف خالد عنهم ؛ بل لقد آخذ بعضهم ملكهم أن يخاطب قائد جيش باللهجة التى أفرغ فيها رسالته ، وقالوا له : « جرأت علينا عدونا بالذى كتبت به إليهم ؛ فإذا كاتبت أحداً فاستشر » .

عسكر المثنّى بجيشه على مرتفع من أطلال بابل على خمسين ميلا من المدائن ، وأقام بين شبكة من جداول تتصل بدجلة ينتظر هُرمز جاذويه وهجومه عليه . وأقبل هرمز بجيشه يتقدمه الفيل وكله الاطمئنان إلى أنه مشتت شمل المسلمين لا محالة . وسار الفيل يضرب بخرطومه يمنة ويسرة ، ويفرق صفوف المثنّى ويوقع الرعب فيهم . وأيقن المثنى أن انتصاره رهن بالقضاء على الفيل ، فخرج فى جماعة من رجاله فهاجموه فأصابوا منه مقتلا فهوى جسمه على الأرض سريعاً ، هنالك التأمت صفوف المسلمين وقويت روحهم ، فهاجموا الفرس فهزموهم شر هزيمة . واحتل فريق من رجال المثنّى معاقل الفرس وتعقب سائرهم المنهزمين حتى انتهوا بهم إلى أبواب المدائن .

قتل الفيل وانتصار المسلمين

عود الاضطراب إلى بلاط فارس

ونزلت أنباء الهزيمة بشهريران نزول الصاعقة فحُمّ فمات ، وأراد الفرس

أن يملكوا عليهم ابنة كسرى ليفرغوا إلى تنظيم شئونهم كرة أخرى . ولم يُنفذْ لها أمر فخلعتْ ، وخلفها على العرش سابور بن شهريران . واستوزر سابور الفرُّخزاد وأراد أن يزوجه آزرْميدخْت ابنة كسرى ، فغضبت ألا يكون زوجها من بيت الملك ، وقالت لسابور : « يا بن عمّ ، أتزوجنى عبدى ! » . لكن سابور لم يسمع لقولها وأغلظ لها فى الخطاب ، فاستعانت بسياوخْش الرازى أحد فُتاك الأعاجم . فلما كانت ليلة العرس ودخل الفرخزاد مخدع آزرميدخت ثار به الفاتك فقتله ومن معه ، ثم سار بابنة كسرى وأعوانها إلى سابور فحاصروه ودخلوا عليه فقتلوه ، وجلست آزرميدخت على العرش مكانه .

المثنى يستعين الصديق بالتائبين من أهل الردة

ترامت هذه الأنباء إلى المثنى فاطمأن ؛ وما خوفه من بلاط عاد إليه الاضطراب والغدر واختلاف الجالسين على العرش ! ! لكنه إن أمن يومه فالحذر يقتضيه الحساب لغده . وسار بجيشه يطارد الفرس حتى بلغ أبواب المدائن ، فهو يطمع فى أن يفتحها . ولا بد له ليفتحها من مدد يقوى جيشه . وما كان أبو بكر ليمدّه وجيوش المسلمين كلها بالشام . لذلك كتب المثنى يخبر الصديق بانتصاره على الفرس ويستأذنه فى الاستعانة بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة . وإذ كان يعلم أن أبا بكر لا يطيب نفساً بهذا الرأى فقد أيده بأن التائبين من أهل الردة يطمعون فى مغانم الغزو ، وأنه لا يرى أحداً أنشط إلى معاونته فى محاربة فارس منهم . وفى انتظار المدد أقام يدبّر خطته . ويحكم تدبيره .

لكن انتظاره طال وأبطأ عليه رد الخليفة . هنالك انسحب فى الجيش إلى أدنى أرض العراق من حدود البادية ، واستخلف بشير بن الخصاصية على من بالعراق من المسلمين ، وذهب بنفسه إلى المدينة يدافع عن رأيه . وألفى أبا بكر اشتد به المرض حتى أشفى على الموت . مع ذلك استقبله الخليفة وسمع إليه واقتنع برأيه وقال : علىّ بعمر ، وكان قد استخلفه ؛ فلما جاء قال له : « اسمع يا عمر ما أقول لك ، ثم اعمل به . إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا. فإن مت فلا تُمسينّ حتى تندب الناس مع المثنّى . وإن تأخرت إلى الليل

وصية أبى بكر لعمر فى أمر العراق

فلا تُصبحن حتى تندب الناس مع المثنى . ولا يشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم . وقد رأيتنى مُتوفَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعتُ ، ولم يُصبْ الخلقُ بمثله . وبالله لو أنّى أَنِى عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا فاضطرمت المدينة ناراً . وإن فتح الله على أمراء الشام فاردُدْ أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحده ، وهم أهل الضراوة بهم والجرأة عليهم » .

ووعد عمر أن ينفِّذ أمر أبى بكر . وكان يقول من بعدُ : « قد علم أبو بكر أنه يسوءنى أن أؤمّر خالداً ، فلهذا أمرنى أن أرد أصحاب خالد وترك ذكره معهم » .

وعاد المثنّى إلى العراق أول ما استخلف عمر . ورفع عمر الحظر عمن عادوا إلى الإسلام من المرتدين لينهضوا إلى حرب فارس . وما لهم لا يفعلون وقد فتح الله على المسلمين ! ثم ما لهم لا يسارعون إلى الخيرات يتطهرون بجهادهم من حوبة ردّتهم ، فإن استشهدوا فلهم الجنة ، وإن أقاموا بعد النصر فلهم من الفيء ما يجعل الحياة جنة أمامهم ! .

ولقد استفتح عمر عهده بمتابعة حروب فارس ؛ فكان لهؤلاء الذين عادوا إلى الإسلام من حسن البلاء ما أرجو أن أقص نبأه فى خلافة الفاروق .